حافظ
على
مستواك
مارينا روماني

رواية

حافظ على مستواك

بقلم: مارينا روماني

مقدمة

كثيرًا ما ترددت على مسامعنا تلك الجملة القديمة في سنوات الدراسة:
«حافظ على مستواك.»
كنتُ أظنّ ـــ كما يظنّ أغلب الناس في البداية ـــ أنَّ الوصول إلى القمّة هو أقصى التحديات، لكنَّ الحقيقة التي لا ندركها إلا بعد أن نقطع شوطًا طويلًا من العمر، هي أنَّ الوصول ليس إلا البداية، وأنَّ الأصعب منه بكثير هو أن تبقى حيث وصلت دون أن تفقد روحك في الطريق.
قيل لنا كثيرًا: «الأصعب من الوصول هو الاستمرارية».
لكنَّني مع الأيام اكتشفتُ أنَّ هناك ما هو أقسى من ذلك كلّه...
أن تحافظ على قيمك حين تتغيّر الوجوه من حولك، وأن تصون أخلاقك حين يصير التنازل عنها هو الخيار الأسهل،

وأن تظلَّ بقلبٍ نقيٍّ في عالمٍ يحاول كل يومٍ أن يقنعك بأنَّ الاستسلام هو سبيل النجاة الوحيد.
لا أحد يخبرك كيف يمكن للمكان أن يخنق صاحبه إن لم يكن يشبهه؛ فكما لا يستطيع النسر العيش في مستنقعٍ لا يليق بجناحيه، لا يستطيع الإنسان أن يحيا طويلًا مع أرواحٍ لا تحترم مبادئه دون أن يخسر شيئًا من ذاته.
إنَّ الذين يعجزون عن مجاراة نورك، لن يترددوا في تهشيم مرآتك كي لا يروا عيوبهم فيها.
في هذه الحياة، ليست المعركة الكبرى في كيفية صعود الجبل، بل في سبيل صيانة اسمك وروحك كي لا تجرّك خُطاك إلى أماكن لم تُخلق لك.
ففي النهاية...
ليس أعظم انتصارٍ أن تصل إلى القمّة،
بل أن تصل إليها... وتظلَّ أنت.

القصة كاملة

في فضاء السماء الصافية، وتحت رحابة الهواء الطلق، كانت النسور تحلّق في علوٍّ وكبرياء، باسطةً أجنحتها في ثقةٍ

وشموخ، تتنقّل بين أرجاء الفضاء الواسع في مرحٍ وحرية، وكأن السماء بأكملها قد خُلقت لتكون مملكتها وحدها.
وبالقرب منها، كانت العصافير تغرّد بأصواتها العذبة، والطيور ترفرف في فرحٍ وسرور، لكل مجموعةٍ منها مسارها ونظامها، دون أن يزاحم أحدٌ منها الآخر.
كان مشهدًا يجمع بين الكبرياء والحرية والمرح؛ نسورٌ تحلّق في الأعالي وكأنها سيدة السماء، وطيورٌ تملأ الفضاء بالحياة والحركة. ومن أراد أن يراها، كان عليه أن يرفع عينيه طويلًا إلى الأعلى، فهناك، في ذلك الفضاء البعيد، كانت تحلّق بعيدًا عن كل قيد، في عالمٍ لا يملكه أحدٌ سواها.
وكانت النسور تقول في نفسها:
«أنا الذي لا شبيه لي؛ أعيش عاليًا فوق الجميع، ولا أرضى أن أكون تابعًا لأحد. لي جناحان يحملانني إلى حيث أشاء، وعينان تريان ما لا يراه من هم في الأسفل. أحبّ حريتي، وأعتزّ بقوتي، ولا أخشى اتساع السماء ولا بُعد المسافات. أنا لا أبحث عن مكانٍ بين الآخرين؛ فلي مكاني الذي أعرفه، ولي عالمي الذي اخترته لنفسي. أحلّق حين أشاء، وأهبط حين أريد، وأمضي في طريقي دون أن ألتفت إلى الوراء. وأن أعيش كما أريد، حرًّا في سمائي، معتزًّا بحياتي، لا أحتاج إلى أحدٍ ليخبرني من أكون.

أنا النسر... خُلقتُ لأسود المدى، بيئتي هي السماء، وبيتي قمم الجبال، وحياتي كبرياءٌ لا ينحني، وموتٌ لا يكون إلا وأنا أُحلّق.

وكانت حياة النسور تسير على هذا النحو، حتى جاء يوم تغيّر فيه كل شيء.

في أحد الأيام، أُصيب نسرٌ بجُرحٍ في قدمه، فلم يعد قادرًا على التحليق كما اعتاد، وانفرد عن مجموعته، حتى سقط في مكانٍ لم يكن يشبه عالمه في شيء... وسط مجموعة من الخنازير.

نظر النسر حوله بدهشة، وأخذ يتأمل حياتهم التي لم يعرف مثلها من قبل. كانوا يعيشون بين الوحل والطين، ويتغذّون على القمامة، وتفوح من أماكنهم روائح كريهة لا يستطيع الإنسان تحمّلها طويلًا. أما هو، فقد اعتاد حياةً مختلفة تمامًا؛ حياةً في السماء، بين الهواء النقي والفضاء الواسع، بعيدًا عن كل ما يعكر صفو حياته.

حاول النسر أن يتحرك، فإذا بقدمه تتعثر وتغوص في الوحل والطين. حاول أن يخرج، لكنه لم يستطع، وظل يضطرب محاولًا تخليص قدمه.

كان في حاجة شديدة إلى الخروج من هذا المكان.

لم يكن يشعر فقط بأنه عالقٌ في الوحل، بل كان يشعر أنه عالقٌ في حياةٍ لا تنتمي إليه.

ظل ينظر إلى الخنازير من حوله، ثم قال في نفسه:

«كيف أصبحتُ هنا؟! أنا الذي اعتدتُ أن أحلّق في السماء، وأرفرف بجناحيَّ في الهواء النقي، كيف وجدتُ نفسي وسط هذا الوحل وتلك القمامة؟»

ثم أخذ يتأمل حاله أكثر، وقال بحزن:

«إن من يريد أن يراني، لا بد أن يرفع عينيه إلى الأعلى... فأنا دائمًا في الأعالي. فكيف، يا الله، أصبحتُ الآن وسط هؤلاء؟»

اشتد حزن النسر على حاله، وظل يحدث نفسه:

«كيف أعيش وسط هؤلاء؟ لا أنا منهم، ولا هم مني. ليست بيئتهم بيئتي، ولا حياتهم تشبه حياتي. لا في المأكل، ولا في المشرب، ولا في المستوى، ولا في أي شيء آخر.»

ظل صامتًا للحظات، يتأمل حياتهم من حوله، ويرى كيف اعتادوا الوحل والطين والقمامة، وكيف أصبح ذلك بالنسبة إليهم أمرًا طبيعيًا، بينما كان هو يشعر بالاختناق في كل لحظة يقضيها بينهم.

كان عالمه مختلفًا تمامًا.

هو ابن السماء، وهم أبناء الوحل.

ومع ذلك، لم يكن النسر يفكر في شيء سوى الخروج.

كان هذا هو هدفه الوحيد.

أن يحرر قدمه من الوحل، وأن يعود إلى مكانه الحقيقي...

إلى السماء، حيث ينتمي.

وكانت الخنازير تتطلّع إليه في صمتٍ مشوبٍ بالغيرة، وتحاول تقليده بشتى الطرق؛ في أسلوبه، وطريقته في العيش، ونظرته إلى الحياة، وحتى في بعض تفاصيله التي لم تكن يومًا جزءًا من عالمهم.

كانوا يقلّدونه أمام بعضهم، ثم يسخرون منه من خلفه، وينتقدون كل ما يفعله، ويضحكون عليه فيما بينهم، وكأنهم بمحاولاتهم تلك يستطيعون أن يصبحوا مثله.

لكنهم لم يدركوا أن تقليد المظهر لا يصنع الجوهر، وأن ارتداء ثوب الآخرين لا يمنح صاحبه روحهم ولا مكانتهم.

فمهما أتقن الإنسان التمثيل، ومهما طال به الزمن وهو يتخفّى خلف صورة ليست صورته، فلا بد أن يأتي يومٌ يسقط فيه القناع، وتظهر الحقيقة كما هي؛ واضحةً كالشمس في وضح النهار.

فالتمثيل مهما طال عمره، يظل مؤقتًا، وسرعان ما تفضحه التفاصيل الصغيرة، وتكشفه المواقف، وتعرّيه الأيام. لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش طويلًا بما ليس فيه، ولا أن يجعل من نفسه شيئًا لم تنشأ عليه روحه، ولم تعرفه بيئته، ولم تكن أخلاقه وتربيته جزءًا منه.

وظل النسر ينظر إليهم طويلًا، ثم يعود ببصره إلى نفسه، ويتأمل ما آلت إليه حياته.

كان يحزن.

ليس لأنهم لم يحبوه، ولا لأنهم سخروا منه، وإنما لأنه هو الذي وضع نفسه بينهم يومًا، واختار بإرادته المكان الذي لم يكن يشبهه.
وكانت سخريتهم المتكررة منه، وكثرة حديثهم عنه، ومحاولاتهم المستمرة للنيل منه، تزداد يومًا بعد يوم. وكانوا، لكثرتهم وتكاتفهم، ينجحون أحيانًا في الانتصار عليه بالكلمات والمؤامرات والحكايات التي ينسجونها من حوله، وكانت بيئتهم نفسها تمنحهم القوة ليقفوا ضده.
كانوا يتآمرون عليه، ويختلقون الأحاديث، ويصنعون من التفاصيل الصغيرة حكايات كبيرة، ويضعون له الفخاخ في كل مرة، ثم يراقبونه وهم يضحكون.
ومع ذلك، لم يتحطم النسر.
كان في داخله شيءٌ أقوى من كل ما يفعلون.
فالأصل غلّاب، كما يقولون.
وكانت أفعالهم، دون أن يشعروا، أكبر دافعٍ له كي يرحل، وأقوى حافزٍ ليستعيد نفسه قبل أن يفقدها تمامًا.
وفي إحدى الليالي، جلس النسر وحيدًا، وأخذ يحدّث نفسه:
«أنا من وضعت نفسي بين هؤلاء.
أنا من أخطأت في الاختيار، وقبلت أن أعيش في مكانٍ لا يشبهني، ثم تعجبت حين أصبحت موضعًا للسخرية.

أنا من سمحت لهم أن يتعاملوا معي بهذه الطريقة، لأنني اخترت أن أبقى بينهم، رغم أنني كنت أعرف منذ البداية أن حياتهم ليست حياتي، وأن عالمهم ليس عالمي.
لكنني الآن أدرك الحقيقة...
هم لم يتغيروا، ولن يستطيعوا أن يصبحوا أنا.
قد يقلدونني، وقد يحاولون ارتداء ثوبي، وقد يتحدثون بطريقتي، وقد يتظاهرون بأنهم يشبهونني، لكنهم سيظلون هم.
فلكل كائن طبيعته، ولكل روح بيئتها، ولكل إنسان مكانٌ يليق به.
وأنا خُلقت لأحلّق، لا لأبقى عالقًا في الوحل.
إن بقيت هنا طويلًا، فلن أموت بجسدي فقط... بل قد أموت حيًّا من الداخل.
لقد حان الوقت لأن أخرج من بينهم، وأن أعود إلى حياتي، إلى سمائي، إلى المكان الذي يشبهني، وأن أحافظ على مستواي، وعلى نفسي التي كدت أفقدها وأنا أحاول أن أجد لنفسي مكانًا بينهم.
أما هم، فليعيشوا كما اختاروا لأنفسهم.
وليس عليّ أن أكرههم لأنهم مختلفون عني، ولا أن أحتقرهم لأن حياتهم لا تشبه حياتي.
لكن عليّ فقط أن أعرف أين أنتمي».
رفع النسر رأسه نحو السماء.

ولأول مرة منذ زمن طويل، شعر أن الهواء من حوله لم يعد خانقًا.
فرد جناحيه، وكأنهما يتذكران فجأةً أنهما خُلقا للطيران.
ثم قال في نفسه:
«لن أبحث بعد اليوم عن مكانٍ بين من لا يرون قيمتي.
سأذهب إلى حيث أستطيع أن أكون نفسي دون أن أشرحها لأحد، وحيث لا أضطر إلى خفض جناحي حتى أبدو مساويًا لمن لم يعرفوا يومًا معنى التحليق».
ثم انطلق.
لم يكن هروبه منهم ضعفًا، بل كان عودةً إلى ذاته.
ولم يكن رحيله هزيمة، بل كان انتصارًا متأخرًا على اختيارٍ خاطئ.
وهنا، أيها القارئ، ربما تكون الحكاية أكبر من نسرٍ وخنازير.
ربما تكون عنك... وعنّي... وعن كل إنسانٍ وضع نفسه يومًا في المكان الخطأ، ثم ظل يتساءل لماذا لم يشعر بالراحة.
فالحياة لا تتوقف فقط على من نحب، بل على المكان الذي نختار أن نضع فيه قلوبنا.
لذلك، اختاروا بعناية.
اختاروا من يساعدكم على النمو، لا من يجعلكم تصغرون كي يشعروا هم بالراحة.

اختاروا من يكمّلكم، لا من يحاول أن يطفئ نوركم.
اختاروا من تجدون بجواره الطمأنينة، لا من يجعلكم في صراعٍ دائم مع أنفسكم.
اختاروا من يفتخر بكم، ويحبكم كما أنتم، ولا يطلب منكم أن تتخلوا عن حقيقتكم حتى يقبلكم.
اقتربوا من كل ما يقودكم إلى أحلامكم، وابتعدوا عن كل ما يسرق منكم شغفكم، ويستنزف أرواحكم، ويجعلكم غرباء عن أنفسكم.
سواء كان ذلك في صديق، أو صاحب، أو جار، أو شريك حياة، أو حتى في المكان الذي تختارون أن تعيشوا فيه.
فأنا لا أقول هذا لأرفع النسر فوق الخنازير، ولا لأقلل من شأن الخنازير.
إنما لكل كائنٍ طبيعته، ولكل مخلوقٍ بيئته، ولكل إنسانٍ حياةٌ يستطيع أن يحياها، ومكانٌ إن أحسن اختياره، ازدهرت روحه فيه.
فلا تضعوا أنفسكم في أماكن تجبركم على الانطفاء.
ولا تحاولوا أن تكونوا نسخةً من أحد، ولا تسمحوا لأحدٍ أن يجعلكم نسخةً منه.
اعرفوا قيمتكم، واعرفوا أين تنتمون.
وتذكّروا دائمًا...
اختياركم اليوم، هو حياتكم غدًا... وهو جزءٌ من مستقبلكم.

فليس كل مكانٍ يصلح لنا، وليس كل من نحب يصلح أن يكون جزءًا من طريقنا.
وأحيانًا، يكون أعظم حبٍ يمكن أن نقدمه لأنفسنا...
أن نرحل لنحافظ على أنفسنا وعلى مستوانا.